إر ٢: ١٣
الآبار المشقّقة

الأخت روز أبي عاد
أستاذة مادّة الكتاب المقدّس
جامعة الروح القدس– الكسليك

مقدّمة

"فإِنَّ شَعْبي صَنَعَ شَرَّين: تَرَكوني أَنا يَنْبوعَ المِياهِ الحَيَّة وحَفَروا لِأَنفُسِهم آبارًا، آبارًا مُشَقَّقَةً لا تُمسِكُ الماء" (إر ٢: ١٣).

تندرج هذه الآية في إطار شكوى يرفعها الربّ ضدّ شعبه الذي خانه بتواتر ودون سبب. يبدأ كلامه بعرض تاريخ المودّة والمحبّة بينه وبين شعبه، يوم كان هذا الأخير مخطوبًا له، فكان يسير وراءه سير الحبيبة خلف حبيبها. ولكنّه ما لبث أن انقلب رأسًا على عقب، وغالى في الخيانة، متناسيًا كلّ ما فعله الربّ له، إذ حرّره من العبوديّة، ورافقه في إقامته في الصحراء، وأدخله أرضًا طيّبة تزخر بالخيرات، وأغدق بركاته عليه. يعود تاريخ خيانة إسرائيل لربّه إلى زمن بعيد، أي إلى حقبة دخوله أرض الميعاد حيث أعطاه الربّ أن يأكل ثمارها وطيّباتها، فما كان منه إلاّ أن ارتدّ عنه، وسعى وراء آلهة أخرى دون أيّ سبب أو تبرير. لقد استبدل الربَّ الإله بآلهة أخرى، ففاقت شناعة خطيئته أهل الغرب حيث جزر كتّيم[١]، وأهل الشرق حيث قيدار[٢]، ولكنّ المقايضة جاءت بلا فائدة. إنّه إرتداد لا يصدّق، لا بل إنّه غير معقول؛ فلا عجب أن يطرح الربّ على شعبه سلسلة من الأسئلة، وينتهي بأن يتّهمه علانية. هذا التصرّف المعيب أغاظ السماوات التي رُوّعت وارتعبت وأصابتها الصدمة حينما إستُدعيت لتؤدّي شهادتها على الجناية التي تقشعرّ منها الأبدان وتنذهل منها العقول.

إذًا نحن بمعرض مرافعة جنائية، والربّ هو المشتكي الذي يعرض أسباب الاتّهام التي يمكن أن نوجزها في ترك الشعب له بعد منحه إيّاه الحياة الوافرة. المفارقة هي كون الربّ يشغل منصبين؛ فهو المدّعي والقاضي في آنٍ واحد. بصورة عامّة يطغى جوّ حادّ بسبب شدّة التناقض بين إخفاق إسرائيل وأمانة الربّ؛ أمّا الإتهامات فهي خطيرة جدًّا إذ يكفي أن تكون قشعريرة السماوات برهانًا ساطعًا لصحّة الشهادة.

(١) توافق كتّيم جزيرة قبرص في أيّامنا، وربّما تضمّ سكّان جزر غرب البحر المتوسّط إجمالاً. وكان آنذاك جزء منها كناية عن مستعمرات فينيقيّة، أي كانت تقام فيها عبادة البعل والعشتاروت، الآلهة الوثنيّة بامتياز، التي كانت عبادتهم مصيدة تستغوي العبرانيّين وتوقع بهم مرارًا.

(٢) كانت قيدار قبيلة بدويّة في عبر الأردن، إلى الجهة الشماليّة للجزيرة العربيّة.

الشرح

يلجأ إرميا النبيّ في هذه الآية إلى الصور البلاغيّة، فيورد استعارتين متتاليتين ليصف الشرّين اللذين اقترفهما الشعب؛ بدايةً، ترك الربّ، ينبوع المياه الحيّة، ومن ثمّ، حفر لنفسه آبارًا مشقّقة لا تمسك الماء. ولكن، وبالرغم من الصورتين البلاغيّتين، فالواقع يُشير إلى أنّنا بصدد شرّ واحد، بحيث إنّ ما يقوم به الشعب في المرحلة الثانية ليس سوى امتداد للأولى ونتيجة حتميّة لها. تقوم الاستعارة المزدوجة التي يستعين بها النبيّ على علاقة تشبيه بين طرفين: المستعار له والمستعار منه. بحيث يُشبَّه الربّ، المستعار له، بالينبوع، المستعار منه، أمّا الصفة المشتركة بينهما فهي الإرواء من مياه نقيّة، وهو الموضوع الذي يجمع بين الربّ والينبوع المتدفّق. زد على ذلك أنّنا بصدد تشبيه ضمنيّ بحيث إنّ الصورة المنوّه إليها تُفهَم من مضمون الكلام، كما أنّ حَذفَ أداة التشبيه ووجه الشبه قد أضفيَا على التشبيه رونقًا وقوّة. من ناحية أخرى، وعلاوة على الاستعارتين، يظهر التناقض جليًّا بين المفردتين "ينبوع" و"آبار". وهذا التناقض يساعدنا أكثر على فهم استدلال وجه الشبه التضادّي؛ فالموازاة بينهما قائمة على المعنى النقيض، ممّا يحتّم علينا دراسة الاستعارتين سويّة بسبب الترابط المتبادل بينهما، وهذا الأمر مُثبَتٌ منذ استهلال الآية حيث نقع على تأكيد مشترك لحقيقة ثنائيّة: "صنع شعبي شرّين".

في هذه الاستعارة، يقوم الينبوع بدور المستعار منه، أي المشبّه به، وهو أحد أركان الاستعارة. يفيض هذا الينبوع "بالمياه الحيّة" أيّ "بالمياه الجارية"؛ إنّها مياه تتدفّق من نبع، ولا تتضمّن أي معنى للقداسة، وبالتالي فهي ليست عجائبيّة. التعريف عنها واضح جدًّا، أنّها مياه جارية [٣]، أمّا صفة "حيّة" فتتضمّن معنى الحياة، أي إنّها تَضمن الحياة.

أمّا اللفظة العبريّة التي يستعملها النبيّ ليشير بها إلى الينبوع فهي كلمة מָקוֹר (مَ ق و ر) التي تشتقّ من الجذر קוּר (ق و ر) والذي يعني "حفر". تحمل هذه اللفظة أكثر من معنى، بحيث تدلّ على تدفّق مادّة سائلة[٤] وأيضًا إنهمار الدموع[٥]. أمّا عندما نُلحقها بالمياه فمن الممكن ترجمتها بـ "ينبوع" و"عين ماء". وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق الدقيق بين لفظة "عين ماء" والتي تعني حفرة من عمل الإنسان، ولفظة "ينبوع" الذي يُقصَد به تدفّق طبيعيّ صنعته يد الخالق، فلا يعد من أيّ التباس لتفضيلنا كلمة "ينبوع". ثمّ، إنّ النبيّ إرميا استعمل كلمة מָקוֹר، "ينبوع"، بحالة النكرة، وكأنّه يبغي عدم تحديد أيّ موضع معيّن له، كالتلميح إلى قناة سلوام التي شقّها الملك حزقيّا[٦] ليُدخِل الماء إلى مدينة أورشليم، ولكن بالحريّ يقصد به أيّ ينبوع مياه يتفجّر ماء جارية [٧].

ربّما لا يحمل موضوع المياه والينبوع أيّة إشارة إستثنائيّة بالنسبة إلى قارئ الجيل الحادي والعشرين، ولكنّ الحقيقة كانت تختلف جدًا للقارئ أو السامع الذي كان يعايش النبيّ إرميا[٨]، حيث كان ينبوع المياه الجارية ذا قيمة باهظة، إذ كان يشكّل مركز حياة وتجمّع

(٣) رج، مثلاً: تك ٢٦: ١٩؛ لا ١٤: ٥، ٥٠؛ عد ١٩: ١٧؛ نش ٤: ١٥؛ إر ١٧: ١٣؛ زك ١٤: ٨.
(٤) على سبيل المثال تعني لفظة מָקוֹר سيلان الدم؛ را لا ١٢: ٧؛ ٢٠: ١٨.
(٥) رج إر ٨: ٢٣.
(٦) رج ٢ مل ٢٠: ٢٠؛ أش ٨: ٦؛ نحميا ٣: ١٥.
(٧) بالإضافة إلى إرميا النبيّ، قد استفاض الأنبياء بالتوسّع بموضوع المياه الجارية في أورشليم؛ رج أش ٨: ٦؛ حز ٤٧: ١؛ يوء ٤: ١٨؛ زك ١٣: ١؛ ١٤: ٨.
(٨) ربّما يكون النبيّ إرميا قد وُلد ما بين ٦٥٠– ٦٤٥ ق. م.

القرية، إنّه الخير الذي يقصده السكّان يوميًّا للإفادة منه. ففي أرض كنعان، كما هي الحال في البلدان الحارّة، تفوق أهمّيّة ينبوع مياه جارية كلَّ تقدير، إذ إنّ حياة القرية بمجملها تقوم عليها. وبالتالي، فمَن يعرف مقدار أهمّيّة وجود ينبوع في بلد حارّ، يمكنه أن يدرك مدى حماقة الذين يتركون نبع ماء متاح لهم استخدامه؛ فالينابيع تشكّل جزءًا لا يتجزّأ من حياة الشعب اليوميّة، والذين يتوجّه إليهم إرميا هو على اطّلاع كافٍ على الموضوع الحيويّ الذي يعرضه لهم. قد يجوز أن تتعرّض الآبار إلى تشقّقات إثر هزّات أرضيّة او نتيجة عوامل طبيعيّة، ولكنّ السخرية هي أنْ يبني الناس لهم آبارًا مشقّقة؛ إذًا لسنا بصدد حادث طارئ بل هو عيب ناتئ منذ نشأته[٩]، ممّا يؤدّي إلى احتقار مَن قاموا به، علمًا أنّهم كانوا قد ارتكبوا حماقة أكبر بتركهم خيرًا كانوا يلجأون إليه يوميًّا ليفيدوا منه.

رغم أنّ موضوع الينبوع والآبار يعكس تناقضًا بيّنًا حول الدور الذي يقوم به كلٌّ منهما، تبقى بينهما لفظة مشتركة؛ إنّها المياه التي يعطيانها كلَيهما؛ ففي حين أنّ الينبوع يدفّق مياهًا جارية، أي مياهًا نقية محيية، تبقى نوعيّة المياه المستخرجة من الآبار بعيدة عن المقاربة؛ وليس من سبيل الصدفة أن تفتقد إلى صفة لهذه المياه، وهذا ما يلغي المعادلة بين مياه الينبوع ومياه الآبار، ويفرض اختلالاً حول نوعيّة مياههما. هذا الاختلال هو بغاية الأهمّيّة، والدليل عليه أنّه ما من أحد يجروء أن يذوق مياهًا مستخرجة من بئر مشقّق ليأخذ فكرة عن نوعيّتها، وفي غالب الأحيان يبدو السبب بديهيًّا: إنعدام وجود الماء في هكذا آبار. من هنا يبدو كلام إرميا في ما يخصّ "الآبار المُشَقَّقَة التي لا تُمسِكُ الماء" نوعًا من التهكّم؛ وكما أنّ المياه الجارية ليست بحاجة إلى مَن يُخبر عنها ويصف قيمتها ومنفعتها، فالآبار المشقّقة ليست بحاجة لمن يذكر ماءها لأنّها بالواقع خالية منها.

من جهة أخرى، حين كان الناس يتعرّضون لمشكلة بئر مشقّقة، أكان ذلك بسبب الصدفة أم نتيجة بناء مَعيب، لم يكونوا يضعونها خارج الاستعمال؛ صحيح أنّها كانت تفقد قيمتها كخزّان مياه، ولكنّها كانت تُستخدَم لتصبح جُبًّا يُطرَح فيه المساجين[١٠]، وبالتالي، يتحوّل دور الذين يزوّدون الناس بالماء إلى دور حرّاس سجون، هذا إذا لم نقل إنّهم بدورهم يصبحون المساجين[١١]. زد على ذلك، فالنتيجة الحتميّة المؤدّية إلى تحويل البئر إلى جبّ تكمن في تحويله إلى مثوى أموات[١٢]. وما يدعونا إلى ربط فكرة الجبّ بفكرة القبر هو الفعل חָצֵב [חָצַב] (ح ص ب)، "حفر"، الذي يرد مع لفظة قبر[١٣]، بالإضافة إلى مضمون لفظة البئر الخالية من الماء والتي تتحوّل بحكم الطبيعة إلى جبّ يحتوي الأموات.

في الاستعارة الأولى، حيث يشبّه الله ذاته بالينبوع، يُشار بوضوح إلى المشبّه: إنّه الربّ. أمّا المستعار منه، فيبدو للوهلة الأولى مجرّد ينبوع ليس إلاّ. ولكنّ هذا التشبيه يحمل في طيّاته النباهة والذكاء، لأنّه ينوّه إلى

(٩) قد يجوز أن يتعرّض أحدهم لتشقّق البئر التي يحفرها، ولكنّه لا يلبث أن يسارع إلى سدّ الثغرات بالكلس بغية حفظ الماء فيها على أكمل وجه.

(١٠) رج تك ٣٧: ٢٤؛ إر ٣٨: ٦.

(١١) لا نغالي إذا شبّهنا البئر بالجبّ، فهذا التشبيه يحتّمه البناء الرديء، فيُفقدها الغاية الأساسيّة التي وجدت لأجلها؛ وعوض أن يؤمّها الناس للحياة، تتحوّل إلى إشارة للموت. Cf. D. BOURGET، *Des métaphores de Jérémie,* Paris 1987, 429-430.

(١٢) رج أش ١٤: ١٥، ١٩؛ ٣٨: ١٨؛ حز ٢٦: ٢٠؛ ٣١: ١٤، ١٦؛ ٣٢: ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٠؛ مز ٢٨: ١؛ ٣٠: ٤؛ ٤٠: ٣؛ ٨٨: ٥، ٧؛ ١٤٣: ٧؛ أم ١: ١٢؛ مرا ٣: ٥٥.

(١٣) وقُلْ: "أيُّ حقٍّ لَكَ هُنا؟ ومَن لَكَ هنا حتَّى تَحفُرَ لنفسك قَبرًا عاليًا وتنحته في الصَّخرِ مَسكِنًا لَكَ؟" (أش ٢٢: ١٦).

مدى أهمّيّة الربّ إنطلاقًا من أهمّيّة الينبوع. فهذا الأخير يخطف الأبصار جميعها إذ يشكّل مركز الثقل بالآمال المعلّقة عليه؛ فهل نغالي إذا قلنا إنّه الوحيد الذي بإمكانه أن يجمع شمل الأهالي بأجمعهم حوله، وذلك دون أن يحتاج إلى الاحتفالات والأبّهات؛ إنّه يؤدّي عمله برزانة كاملة، دون أن يخيّب أمل أيٍّ من سائليه. أضف إلى أنّ ما يعطيه لهم يتعلّق بالحياة وليس بأمور ثانويّة. ولكن، يا للمفارقة، فموقف الشعب يتجسّد بفعل עָזַב (ع ز ب)، "أي ترك"؛ إنّه موقف الشعب تجاه إلهه. في الميتولوجيا الأوغاريتيّة، نجد الفينيقيّين يعبدون بعل، إله المطر والخصب، وكان عبّاده يدعونه بالينبوع الذي يرويهم (١٤)، مع الفرق أنّ عبّاد البعل لم يتركوه كما فعل العبرانيّون بإلههم؛ فإذا كان الربّ لا يتفرّد بكونه ينبوع ماء، لكنّ شعبه يتميّز بكونه الوحيد الذي ترك إلهه.

في آ ١٣، لا يقوم التضادّ بين الينبوع والآبار فحسب، بل أيضًا بين الربّ والآلهة الأخرى. وهذا التضادّ واضح بين ذكر المستعار له الأوّل، أي الربّ، وإبقاء ذكر المستعار له الثاني، أي الآلهة الأخرى، طيّ الكتمان. وبما أنّه لا اسم لمن ليسوا بآلهة، فالنبيّ يتعمّد عدم ذكرهم وعدم تسميتهم. يعي إرميا جيّدًا كيفيّة الإفادة من الاستعارة وترك اسم الآلهة سرًّا، فكأنّي به يقول إنّ لا اسم لهم، وبالتالي فهم غير موجودين. ثمّ إنّ قوله إنّهم آبار مشقّقة، لا يرد على سبيل الصدفة، بل يودّ التنويه على كون هذه الآبار عاجزة عن منح الناس ما يحتاجونه منها منذ نشأتها؛ فلا منفعة منها منذ البداية.

يمكننا أن نتوسّع بالفكرة، فليس المقصود بالمستعار له الآلهة وحسب، بل بصورة عامة كلّ ما يعتبره يهوذا ضمانة، والحال أنّه مجرّد وهم ليس إلاّ. وهذا التوسّع هو نتيجة حتميّة للاعتقاد بأنّ كلّ ما ليس الله هو بالتأكيد إله وهميّ؛ نجد هنا صدى لإرميا ٢: ٥: "ابتَعَدوا عنّي وساروا وَراءَ الباطِل وصاروا باطِلاً" (١٥). ما يزيد الموضوع تفاقمًا هو أنّ الإنسان يصير شبيهًا بمن يعبده؛ فإذا كان الشعب يسير وراء الهباء والخيلاء، ستنتقل العدوى من المعبود إلى تبّاعه ليصبحوا بدورهم فراغًا وتفاهة ودون جدوى.

إنّ النبيّ، إذ يصف الآبار التي حفرها الشعب، وليس آبارًا حفرها آخرون وفضّلها الشعب على غيرها، يشدّد ليس على الآلهة أو على الضمانات المتأتّية من الخارج، بل على ما يختلقه الشعب لذاته. إنّها طريقة لتخفيض جميع ضمانات الشعب إلى مستوى الأشياء المصنوعة منه؛ فهذه الضمانات لن تؤدّي به سوى إلى الجبّ حيث تُرمى الأوهام الميتة. ها الشعب يحفر مدفنه بنفسه، وهل من حماقة أشنع من هذه؟

يبقى أن نشير إلى الفعل חָרֵב الذي يرد في إر ٢: ١٢، والذي غالبًا ما يترجم بـ "إرتعب، ذُعر، روّع"، ولكن في بعض الأحيان يمكن ترجمته بمعنى آخر وهو "جفّ" (١٦)، وعليه يتسنّى للسماء أن تقوم بدورين: الأوّل أن تكون شاهدة يستدعيها أحد فريقَي العهد، بسبب خيانة الالتزام بالعهد التي وردت في آ ١١ بحيث إنّ "الأمّة استبدلت آلهتها". إزاء هذا الواقع، إستُدعيت السماء بصفتها شاهدة، وأُلقي على عاتقها مهمّة نزع القناع عن الذي خان عهده. أمّا الدور الثاني الذي طُلب من السماء فهو أن تحبس المطر، فيكون هذا الدور بمثابة تمهيد مباشر لتقديم الاستعارة الواردة في آ

(١٤) Cf. A. CAQUOT - M. SZNYCER - A. HERDNER, *Textes ougaritiques,* Paris 1974, 350.

(١٥) رج هو ٩: ١٠: «ونَذَروا أَنفُسَهم لِلعار، فصاروا مَكْروهينَ كَأَحْبابِهم».

(١٦) E. BROWN - S. DRIVER- C. BRIGGS, *The Browns-Driver-Briggs Hebrew and English Lexicon with an Appendix Containing the Biblical Aramaic*, USA ^{4}1999.

١٣ والتي تتبعها مباشرة. إزاء ترك الشعب لينبوع المياه الحيّة بغية الاستقاء من الآبار المشقّقة، لا بدّ من ردّة فعل عكسيّة من السماء التي يُطلَب منها أن تحتبس المطر، لربّما عندما يعي الشعب أهمّيّة النعمة التي فقدها، ويفهم مقدار الهوّة الشاسعة بين الينبوع والآبار، عندها ستنفتح عيناه ليدرك جسامة خطيئته.

خاتمة

ليست هذه هي المرّة الوحيدة التي يتشكّى فيها الربّ من خيانة الشعب له وجريه وراء آلهة أخرى بالرغم من أمانته اللامحدودة له[١٧]، وتصميمه على إقامة عهد ثابت ومتين معه؛ فلطالما آلمه هذا الموضوع الذي غدا واقع الحال لتمرّد قديم للشعب الذي اختاره والذي أَلِف الابتعاد عن إلهه، لدرجة أنّ التمرّد قد غدا جزءًا من التاريخ الذي يرثه الأبناء عن الآباء، فَسَهُلَ عليه استبدال إلهه بآلهة وهميّة. لن يتوقّف هذا الجريان وراء الآلهة الغريبة حتّى يصل بالشعب العبرانيّ إلى مصر وأشّور (إر ٢: ١٤–١٩).

على الرغم من اللجوء إلى أسلوب المرافعة الذي يستعمله الربّ إزاء شعبه، بما فيه الاتّهامات واللهجة الشديدة، لا يخلو كلامه من الرحمة، فالربّ المتّهم لا يُسرّ برفع الشكوى ضدّ شريكه الذي كان قد أبرم معه عهدًا، بل يحاول أن يعيده إلى رشده من خلال استدعائه إلى التوبة (إر ٣: ١٢–١٣)، إذ فقط بالتوبة يمكنه أن يُنقذ نفسه من الهلاك الحتميّ. بالتوبة فقط يمكنه أن يحافظ على كيانه كدولة مستقلّة تنعم بالأمان والاستقرار من لدن حاميها. خلاصه يقوم على إنقاذ علاقة المودّة والمحبة التي كان يكنّها لخطّيبه الربّ. وإلاّ سيفقد معنى وجوده وسيُستعبَد لشعب جرّار. إذًا، يحضّ النبيّ إسرائيل لاتّخاذ قرار فوريّ وجذريّ. لقد كان استبدال الربّ بالآلهة الوثنيّة كاستبدال ينبوع المياه الحيّة بالآبار المشقّقة التي تعجز عن الاحتفاظ بالماء. يا للحماقة التي ارتكبها الشعب المضلَّل، والتي لا تقلّ عنها حماقة الآبار المشقّقة في أيّامنا هذه والمتجسّدة في المال والسلطة والشهرة واللذّة. إنّها الآبار المشقّقة الحديثة التي تجتذب وتخدع وتستميل العديدين لتنتهي بهم إلى خيبة أمل جارحة.

في العهد الجديد، سيعود يسوع المسيح إلى استعمال الاستعارة نفسها ويشبّه نفسه بالماء الحيّ الذي يحوّل الذي يستقي منه إلى عين ماء يتفجّر حياة أبديّة (يو ٤: ١٤).

(١٧) رج في هذا الإطار، مثلاً، تث ٣٢: ١٥–١٨؛ مز ١٠٦: ٢٠؛ إر ٢: ٥–٩، ١٧، ١٩؛ ٥: ٧، ١٩؛ ١٦: ١١؛ ١٧: ١٣؛ ١٨: ١٣، ١٥؛ رو ١: ٢٣.

Bibliographie

AESCHIMANN A., *Le prophète Jérémie*, Suisse 1959.

BOURGET D., *Des métaphores de Jérémie*, Paris 1987.

BROWN, E. – DRIVER, S. – BRIGGS, C., *The Browns-Driver-Briggs Hebrew and English Lexicon with an Appendix Containing the Biblical Aramaic*, USA [4]1999.

CAQUOT A. – SZNYCER M. – HERDNER A., *Textes ougaritiques*, Paris 1974.

CRAIGIE Peter C., *Word Biblical Commentary: Jeremiah 1-25*, Dallas 2002.

HOLLADAY W. L., *Jeremiah* I, Philadelphia 1986.

LUNDBOM Jack R., *Jeremiah 1-20: A New Translation with Introduction and Commentary*, London 2008.

MARTENS E. A., *Jeremiah*, Scottdale, Pa. 1986.

SPENCE-JONES H. D. M., *The Pulpit Commentary: Jeremiah*, vol. I, Bellingham, WA. 2004.

WISSER L., *Jérémie, critique de la vie sociale*, Genève 1982.